الاجراءات الأمنية في تدمر في القرنين الأول والثاني ميلادي

نقولا زيادة

الجامعة الأميريكية في بيروت ـ لبنان

ـ١ـ

كانت الدول التي تقيم جماعات بدوية داخل حدودها، كانت تلقى الأمرين في تعاملها معها؛ ذلك بأن الحياة البدوية، التي تعتمد على التنقل وراء المرعى، لم تكن تجد ما يكفي من السكان من حاجات المعيشة. ومن ثم فقد كان من الطبيعي، عندما ينظر إلى المسألة من الناحية الاقتصادية الاجتماعية، أن يحاول هؤلاء الحصول على مورد للعيش اضافي، ولكن على حساب الجماعات المستقرة. وكان هذا مما يؤذي العمل الحكومي الاداري. إذ أن المجتمعات الريفية والمدينية كانت تتعرض للنهب، كما كان المسافرون، تجاراً كانوا أم حجاجاً يتعرضون للسلب.

إن الدول القديمة في الشرق القديم أو الدول التي أدارت شؤونه مثل الفرثيين والرومان وخلفائهم الساسانيين والبيزنطيين، استغلت هذه القبائل البدوية التي كانت تقيم ضمن حكمها أو في مناطق قريبة منها، في خلق «دول ـ حدودية». وكانت هذه يدير شؤونها زعماؤها الذين لعلهم كانوا على علاقة باطنة أو ظاهرة مع الدولة الكبرى. ومن هنا فإننا نجد، عبر الأزمنة المتطاولة، وخاصة خلال القرون الثلاثة قبل الميلاد والقرنين اللاحقين له، أن عدداً كبيراً من «المدن ـ الدول» عربية أو آرامية عربية، كانت تقوم في المنطقة، ولها كل مظاهر الاستقلال المحلي، ولكنها كانت دويلات معاهدة مع واحدة من الدول الكبرى.

وعندنا من هذه المدن أمثلة حترة (الحضر) والحيرة شرقي الفرات، وتدمر والبتراء في الجهة المقابلة.

وقد لجأت السلطات إلى وسائل مختلفة للتعامل مع القبائل البدوية وحل مشكلاتها في العصور الحديثة. فالدولة العثمانية مثلاً جربت في القرن التاسع عشر، وخاصة في نصفه الثاني، أن «توطن» البدو بحيث يستقرون. وقد لجأت الدولة إلى القوة، فأرسلت الحملة تلو الحملة. ولكن هذه المحاولة فشلت، وظل البدو عنصر شغب وازعاج للدولة. ولذلك سبب اقتصادي أصلاً، ذلك أن الأرض التي أرهقتها الحروب واتلفتها المعارك وأدى تخريب القنوات إلى تحللها بعد جفافها، لم تزود البدو بحاجتهم من المادة الغذائية الأساسية. ثم إن البدوي عندما يشعر بأنه سيغلب على أمره يطلق ساقيه للريح إلى أعماق الصحراء. والقوى المنظمة لم تكن تستطيع أن تلحق به.

ـ٢ـ

في أوائل القرن الحالي (القرن العشرين) جربت الحكومة وسائل أخرى. إن البدو في صحراء سينا

كانوا دوماً عنصر ازعاج للحكومة المصرية. فلما عين جارفس بك محافظاً لسيناء أنشأ فرقة شرطة هجانة، واختار عدداً من أبناء البدو للعمل فيها. ولأن هذه الفرقة المنظمة كانت تعرف مداخل الصحراء ومخارجها، فقد نجحت في توطيد الأمن. وعندئذ انصرف الكثيرون من حياة التنقل المستمرة إلى حياة فيها بعض الاستقرار، فأحيوا الأرض التي كانت قد ذبلت بسبب الاهمال.

وقد حدث في العراق والاردن شيء من هذا، ولعل النتائج في الاردن كانت أجدى. بدأ الاهتمام بهجانة من البدو بعيد ثورة ١٩٢٠ في العراق. وقد أدى ذلك إلى أن استتب الأمن في بعض المناطق وكان ثمة بعض الاستقرار.

كان جون غلوب، المعروف باسم ابوحنيك، قد عمل في العراق لما جاء إلى الاردن، ليتولى الشأن العسكري هناك. كان سلفه فريدريك بيك قد بدأ بتدريب فريق من الهجانة للمحافظة على الأمن في الصحراء. وقد توسع غلوب في أعماله وانشأ، مع ضباط بريطانيين، ما عرف باسم قوة الحدود الاردنية. وهذه، مع الهجانة، كان افرادها من الشباب البدوي. وهكذا بسبب اجتماع الأمن والعمل، ساد شيء من النظام في هذا المجتمع.

ـ٣ـ

هذه المحاولات والتجارب الحديثة لها سوابق في العصور القديمة - وخير مثلين على ذلك الانباط والتدمريون.

إن سكان المنطقة التدمرية هم عرب هبطوا هذه الرقعة لما هاجروا من جنوب غرب بلاد العرب. ومثل ذلك يقال عن الانباط سكان البتراء. وقد كانت القبائل الأم - أي التي كانت تقيم في جنوب غرب الجزيرة - تتعامل مع التجارة وتهيء القوافل وتنظم حمايتها لعصور طويلة.

وقد أصبح الاحفاد، من الانباط والتدمريين، أيضاً تجاراً لان بلادهم تفتقد الطرق الرئيسية في المنطقة.

وقد ادرك الانباط - ولعل ذلك كان صدى الذكريات الحاكي - أنه خير لهم وأجدى، على طول المدى، أن يحموا القوافل ويحضروا لها وللتجار مخازن ومنازل، من أن يهاجموا هذه القوافل وينهبوها.

كانت تدمر، على ماتبدى لنا من الكشف الأثري والوثائقي، مركزاً تجارياً مهماً حتى لمدة ألف سنة قبل الميلاد. ولما اتجهت طرق تجارية جديدة على «عروس الصحراء» فقد ازدادت القوافل عدداً والتجارة كماً، بحيث أنها أصبحت، في القرن الأول قبل الميلاد، المركز الأول لتجارة المنطقة. ولما احتل تراجان البتراء (١٠٦م) أخذت أهميتها التجارية تضمحل، وتحولت طرق التجارة عنها إلى تدمر.

وقد ارتأت السلطات التدمرية أنه من المصلحة أن تؤمن للتجار جميع أنواع الضمانة لسير أعمالهم. وقد بدا هذا في أمرين: الواحد هو الحجر الجمركي (يعود إلى سنة ١٣٧م) الذي يحدد أنواع الرسوم الجمركية التي يتوجب على التجار دفعها عن كل سلعة، سواء في ذلك مايدخل المدينة، أو مايخرج منها؛ والثاني هو الحماية.

وقد تم ذلك عن طريق انشاء فرق من الهجانة لتضبط الأمن في منطقة واسعة. ذلك أن التدمريين كانوا يعتبرون أن مسؤوليتهم في حفظ الأمن تشمل المنطقة الممتدة من الفرات إلى حماه ودمشق. ولنتذكر أن دورا اوروبس (الصالحية) على الفرات كانت ميناء لتدمر.

والذي قامت به البتراء، بلغت فيه تدمر الذروة في الاتقان. فقد كانت فرق الهجانة تدرب تدريباً تاماً، وكان أفرادها يختارون اختياراً خاصاً. كانت المراكز الرئيسية للفرق تقوم في تدمر؛ لكنها كانت تذرع مئات الأميال، وكانت تلجأ إلى أبراج أو إلى قصور مسورة محصنة للاراحة والتبديل. وقد كانت سرعتها ونشاطها يساعدها على ضبط الأمن والحؤول دون الاخلال بالأمن.

ويبدو أن تدمر رتبت أمر اشراك الفقراء في المدينة ببعض الارباح. لعل هذا لم يكن أمراً رسمياً أي حكومياً، ولكنه كان يتم.

وبهذه المناسبة، وعلى سبيل المقابلة، فإن قريش التي كانت لها الصدارة في تجارة مكة قبل الاسلام، جعلت جزءاً من الأرباح يجد سبيله إلى المحتاجين؛ ولو أنه هنا كان يتم على أيدي أشخاص معروفين وبطريقة رسمية وتعنى بها مؤسسات متفق عليها.